چيو كندا مصرية

إنها ليست أول مرة أحاول ، ربما هى ثالث أو رابع مرة ، فأنا أحس كلما أردت كتابتها أن اللغة التى أستعملها أخشن وأصلب وأجوف بكثير من أن تستطيع التعبير عنها ، أحس أن لغتنا ، تلك التى نتحدث بها ونكتب خلقت لتصوير أحداث ضخمة وأحاسيس كبيرة الحجم كالصخر أو حتى إذا صغرت فهى كالرمل أو الحصى فى حين أن ما أريد تصويره ناعم موسيقى رقيق دقيق كأنه الذرات العالقة بشعاع الضوء إذا سقط فى غرفة مظلمة . لا . ليس حتى كعزف الكمان أو أنين الناى ، إنما هو كاللحن الذى لا تستطيع سماعه إلا إذا خفت الضجة فى الدنيا كلها أو سكن الكون تماما ، ثم طهرت نفسك من كل ما يشغلها من هموم الأرض وأحاسيسها الترابية العابرة ، واستحضرت فى ذاتك المعانى الحقيقية للرحمة والحب والحنان والإنسان ، المعانى الخالدة السرمدية التى يحيا البشر على أمل

أن ذات يوم تتحقق ، حينئذ فقط ، وبعد طول معاناة فى تهيئة النفس ، وطول تأمل وسكون ، ستجد نغما رقيقا واهن الضعف قد بدأ يتسرب إلى نفسك ، ليس من أذنك فقط ، وإنما من كل ذاتك ولكل ذاتك ، يتسرب النغم تسربا لا يفعل أكثر من أن يحيل ذاتك نفسها إلى ذات النغم ، حتى لتندمج معه فى . وحدة بالغة الشفافية .

أنى لى بكلمات تستطيع وصف هذا وكلماتنا صنعت لمعان محدودة واضحة لا شك فيها ولا احتلال ، أنى لى بكلمات تستطيع وصف عشر الانفعال ، والواحد على المائة من الارتجافة أو الخفقة الواهنة التى يكاد السمع يتجاوزها ؟

أنى لى بألوان أستطيع بها وصف لون « حنونة » المسيحية ، ذلك اللون الذى لا هو أبيض ولا قمحى ، ولا هو أوربى ولا شرق ، لا هو صعيدى ولا من أقصى الشمال فى بحرى ، لون حتى فى مكوناته زرقة ليست زرقة الموت ولكنها كزرقة الفجر إذا شقشق ، أو زرقة البحر إذا هجع وتحولت موجاته إلى نداءات وديعة تؤوب إلى مستقرها عند الشاطئ خاشعة ساجدة تهيب بك أن ترتمى بحرا وتعب زرقته حتى النهاية .

وكيف لى أن أبدأ القصة وليس فى ذهنى بداية واضحة ، إن هى

إلا علاقات متصلة بين الناس ومنشأ مشترك ، وطفولة ، ثم صبا ، و (شال) كمونى باهت ، وحجرة ليس بها أحد سوانا ، وخبز مقدس ، ثم إنجيل صغير الحجم كثير الصفحات ، مكتوب بلغة عربية لها طعمها الخاص .

وكنت فى سن البلوغ ، تلك التى تحس فيها أن هناك دنيا هذا صحيح ، وهناك صبح وشمس وقمر ، وهناك بلاد بعيدة بعيدة قبل البحر المالح وعبر المالح وبعد المالح ، (الطلمبات) بضخامتها السوداء الزيتية المهولة وصوتها المتئد الوقور المستمر ، والماء المجذوب بسحر خفى وبكم هائل إلى فتحاتها والماء الهادر الغاضب المندفع الأرعن الخارج عنها ، هناك الغربان والعصافير ،.وأولياء الله الصالحون ، وهناك المصحف والآيات التى يجب عليك حفظها وكلها عن جنة شديدة الجمال غريبة ، وعن نار جحيمية يقشعر لها بدنك وثواب وعذاب ودنيا وآخرة ، وهناك أيضا وهذا هو المهم المباشر ، خيزرانة الشيخ مصطفى المنكفىء العمامة إلى أمام أكثر مما يجب ، ذى الأرجل الرفيعة المنتهية بركب كرؤوس عيدان الكبريت ، حين يضع ساقا رفيعة فوق ساق ، ويتدلى حذاؤه حائل اللون فاغر الفاه . ويهز لك رأسا فوقه تهتز العمامة ويقول : سمع يا ولد . هناك شيء ما هذا

صحيح . شيء لا نراه ولا نحسه ، شيء آخر غير ليلة القـدر ، والموت ، والحب الشديد الذى أكنه لأبى ، شيء بإرادته مختلف لا يريد أن يظهر ، ربما خوفا علينا ، إذ ربما لو ظهر لمتنا من شدة الخوف والرعب والمواجهة .. شيء آخر غير العفاريت ، فالعفاريت رغم كل شيء فيها ما يضحك ، ولكن هذا الشيء لا يبعث على الضحك أبدا . إنه قاس ووقور مهيمن رحيم .

قلت لحنونة ، وأنا بالضبط لا أعنى ما أقوله :

ــ أريد أن أكون مثلك ..

كانت لابد أكبر منى ربما بعام أو بعامين ، فقد كانت أطول وإن كانت أضعف ، ولكنها دائما الأعقل والأحكم . وهنا بالضبط أعجز عن التعبير . روحها ذلك الإحساس المشع منها وكأنه النور يأتى من لا مكان أو بطريقة غير مباشرة ، روحها تلك كانت تضفى على كلماتها ومشيتها وعلى الطريقة التى ترفع أو تخفض بها يدها أو تقضم قضمة صغيرة وبأسنانها الأمامية من الخبز المقدس .. مسحة غريبة البراءة والنقاء والرشاقة تجعلك تعتقد وكأنها ليست من أهل الأرض ، وكأنها النوع الثانى من البشر ، ذلك الذى يصنع الحلقة الكائنة بينهم وبين الملائكة .

ولا أذكر بماذا أجابتني .. ولا حتى على وجه الدقة إذا كانت قد أجابت ، وماذا أيضا قالت عن الإنجيل ، والخبز المقدس ، و (كيريالسيون) ومعناها كما علمتني (يارب .. ارحم) ، قد سمعت القسيس الآتي من المدينة يرددها في زفاف (عفيفة) حين تزوجت منذ شهور . كل ما أذكر أني من إجاباتها بدأت أحس أن هناك أناسا آخرين ، غيرنا نحن أظن أن الدنيا كلها مسلمة ، وأن هذا الدين الآخر الجديد مملوء بأشياء تثير الخيال ، وتبعث على حب الاستطلاع الشديد ، وخاصة أن لهم في البندر — كما عرفت من حنونة — كنيسة ، فيها صورة كبيرة للمسيح ، وفيها شموع وثريات بالكهرباء ، وفيها غناء ،

ولم أعد أدري ، أسر تتبعي لحنونة — حتى وهي في طريقها إلى النوم — إن هو إلا محاولات أكثر لإدراك أشياء أخرى عن هذا الدين ، أم هو استسلام لذلك الإشعاع الذي لا يقاوم الدائم الصدور عنها يجذب إليها الناس والأشياء ويحيل كل ما تصنعه إلى حدث براق ممتع رقيق مثير .

ولكن ما أعرفه أنه لا أقول بدأت أحس برباط قوي يربطني بها . وإنما بدأت في أحيان أعي أني لا أتركها وكأني ظلها ، إحساس كان

لا يراودنى إلا فى اللحظات التى أغادرها فيها . فوأنا معها كنت لا أحس بنفسى ولا بما أفعله أبدا ، فأنا ذائب تماما فى ذلك اللقاء المستمر معها ، لا هم لى إلا تأملها ، وتتبع ما تقوله أو تفعله كالمشدوه بمعجزة خارقة ، دائمة الحدوث ، لا ينفصل عن شعوره بها ولا يبغى إلا أن يظل فى حالة النشوة المشدوهة تلك لا يغادرها أو تغادره لحظة .

ويخيل لى أن مشاكل العالم تنشأ من هنا . فنحن أبدا لا نستطيع الصبر على ظواهر الكون أو التفاعل التلقائى للأحداث وعلاقات القوى والنماء وهى تنشأ وتنمو وتتفرع وتزدهر ، إنما دائما بإرادتنا الحمقاء وقوانيننا التى ابتدعها أقدمون متزمتون ، دائما نتدخل ، فنفترض سوء النية أو حتى حسنها ونتدخل ، وفى تدخلنا نحاول الفرض والكبت والتأكد المستعجل ولوى سنن الحياة .

ترى ما إذا كان يضير أن تستمر علاقة كهذه ، زهرة وديعة وسط غابات الطبائع والنفوس والعلاقات الاجتماعية المتشابكة المعقدة التى لا تدرى عنها شيئا .

وماذا يهم أننى ابن مهندس الطلمبات ، وأن والد حنونة هو كبير الأسطوات ، وأننى ولد وأنها بنت ، وأن كلام الناس كثير ، مع أن الناس فى (المستعمرة) التى نسكنها جميعا قليلون ، كلهم لهم مساكن

أقامتها لهم وزارة الرى قريبا من مبنى الطلمبات هائل الضخامة ، مستعمرة ومجتمعها وطلمباتها كائنة فى مكان ما ، بعيد وسحيق من شمال الدلتا . مجتمع صغير مكون من مجموعة صغيرة ــ وإن كانت فى ذلك الوقت تبدو لعينى وكأنها ربع العالم ــ مسلمون ومسيحيون ، ومع هذا فألف مشكلة قائمة ، وألف شوكة تؤلم بلسعها ووخزها هذه العشرات القليلة من الخلوق فى ذلك المكان الكائن عند آخر الدنيا .

بدأ الأمر بشكاية من أمى لأبى ، وأبى خاضع لأمى منذ قطعت ساقه أو التهمتها مروحة الطلمبات لا أعرف ، فالقصة غالبا لا تروى ، إذ هى دائما وكأنما تجلبُ معها الذكرى والألم . ومنذ أن أصبح أبى بساق واحدة أصبحت أمى بثلاث سيقان وعشر أياد ومائة لسان .

وهكذا أوقفنى الرجل الطيب أبى ذات صباح وأنا ذاهب إلى (كتاب) الشيخ مصطفى وأفهمنى بطريقة لا تقبل الجدل أن على العودة بعد (الكتاب) إلى البيت مباشرة .

لم يشأ الرجل الطيب أن يؤلمنى بذكر حنونة وحكايتى معها . آثر أن يدع الباق لفهمى . وأنا أيضا لم أشأ المناقشة ، فقد اعتزمت ومنذ

اللحظة الأولى أن أخالف هذا القرار ، وأكذب ، وأقابل حنونة . وكيف لى أن أستطيع الكف عن شيء لا أفعله بإرادتى ، إنما أجد نفسى ، هكذا ، كما أجوع وأعطش وأشرب ، أفعله ، دونما فكر أو أرجحه للاحتمالات وأخذ قرار . إننا ونحن أطفال وصبية نكون أكثر صدقا مع أنفسنا ومع ما نريد ، وما نريده يكون أكثر صدقا مع الحياة نفسها ، كل ما فى الأمر أننا صغار فى عالم لا يخضع للحياة وقوانينها وإنما ينظمه ويقننه ويحكمه الكبار ، ولابد دائما أن يتدخلوا ، فإذا فعلوا فإنما ليجبرونا ، لا نمتنع ، وإنما لنراوغ ونكذب ونكرههم كما نكره العقاب .

ولا أعرف ماذا بالضبط ، وبالمقابل ، حدث لحنونة .

ولكنى فى مكاننا المعتاد عند (الهدار) وهى البئر العميقة التى تصب فيها كل المياه القادمة من المصارف الكبرى ، وتأخذ عنه أفواه الطلمبات الماء لترفعه بعد هذا إلى أعلى ، إلى مستوى منسوب البحر الأبيض ليتم صرفه والتخلص منه ، إذ الماء الجوفى فى الدلتا وشمالها أقل من منسوب البحر ولا بد من ضخه إلى أعلى ، ومن أجل هذا أقيمت الطلمبات . فى مكاننا عند الهدار لم أجدها . وانتظرت ، وتأملت كثيرا منظر الماء وهو يهدر فى الهدار ويدور ويصنع دوائر كبيرة تنتهى

إلى دوائر أقل وأكثر انخفاضا وتدور بسرعة أشد إلى أن تصنع الدوائر حفرة على هيئة القمع يقولون إن قاعها يبلع الرجل ولا يبين له بعد هذا أثر . ولم تحضر . وغير قريب من بيتهم وقفت وقد بدأت أحس أن يد الكبار غليظة حقا وأنها قد عملت عملها وأن اليوم الواحد العذب الممتد الطويل قد انقطع .

وفى الشباك تحتها ، كنا العصر ، والشمس قد استحالت من جهنم الظهر المروعة إلى مجرد مصباح أصفر رقيق يضيء الشباك وداخل الغرفة ، وفى وسط تلك الأرض الصفراء الحية بصفرتها يستدير وجه حنونة وقد أكسبته الأشعة لونا غريبا يلمع من خلال القضبان الحديدية الداكنة ، لونا يحيل الوجه إلى شمس أخرى ، شمس مخنوقة منكفئة الجبهة ، مختبئة .

وقفت انتظر منها إشارة ، أو بريق عين حتى ، يدل على أنها رأتنى أو أرادتنى ، ولكنها كانت صامتة واجمة ، كانت بالضبط صورة (العذرة) العذرة مريم ، نفس الصورة المعلقة فى غرفتها معلقة الآن فى النافذة ، ولابد أن ألقاها ، وأنا أعرف الست (أم حنونة) وأعرف أنها وإن كان يقال إنها أشد الناس سلاطة ، إلا أنها معى طيبة ، تعطف وكأنما بالسليقة على مزاملتى لابنتها ، كثيرا ما دست

فى جيبى برتقالة ، أو حبات (بون بون) ودائما تقول سلم على الست (أم محمد) ، سلاما لا أوصله ، فقد كنت أعرف رأى أمى فيها ، ورأيها فى أمى .

الباب مفتوح ، أأدقه ؟ دخلت .

أم حنونة خارجة لتوها من المطبخ وهباب الوابور على وجهها وأطراف شعرها الأبيض وملابسها ، أشرق وجهها بابتسامه وكأنما أدركت سبب المجىء ، أعقبها فى الحال تجمد ملامح وكأنما ظهرت إلى وعيها المشكلة والتحذير ، وتلعثمت وفأفأت ، ولكنها لم تصرح بشىء ، وإنما استدارت وكأنما لم تر ولم تسمع ، وعادت إلى المطبخ .

وما يدرينى ، فقد قرأت فى حركتها تلك علامة الرضا . واندفعت إلى الغرفة كالسهم . ووجدت حنونة واقفة تبتسم وتنتظر انتظارا منخفض الرأس لا يزال وفى عينيها دون أن أراهما مكر برىء جميل كمكر المحبين .

ولدهشتى أقدمت على حركة لم أكن قد تعودتها منها أبدا ، مدت يدها تصافحنى ، وبكل ما لدى من لهوجة مددت يدى وشددت على يدها بقوة حتى بدا أنها تألمت . كنا دائما نلتقى أو نسير

أو نتحرك أو نقدم على عمل الشيء معا ، أما أن نتصافح فذلك ما لم نفعله إلا هذه المرة . يدها صغيرة كانت ، ويدى رغم العامين فارق السن ، أكبر ، يد نحيلة تنتهى بأصابع أيضا رفيعة ونحيلة تقبض على مجموعة من أقلام الرصاص ، ولكن ، لم تكن أقلام رصاص ، كانت اليد بأصابعها حية دافئة كأنما تركزت فيها كل إشعاعاتها الخاصة. لم تكن يدا . كانت قلبا نابضا دق ، نفس القلب الذى سمعت دقته حين كنت أتعمد الاقتراب بوجهى من صدرها . مصافحة روعتنى وأحدثت بى مساء .

قلت لها :

ـ أنت كالعذرة مريم .

رفعت حاجبها فى استنكار مذعور ، ولكنها عادت تبتسم كأنما عيب ما أقول ، ورغم هذا سألتنى :

ـ كيف ؟

قلت لها :

ـ وأنا أراك من النافذة كنت كالعذرة ، بدون المسيح يا حنونة ، أنت حنونة .

وكم كان يمتعنى دائما أن أناديها باسمها وكأنما أستمتع بنطق الاسم

وطعمه فى فمى . أنا المسيح وأنت العدرة . خلينى مسيحك وأنت عدرتى .

كادت ، بل ضربتنى على يدى فعلا ، إنما برفق تنهانى . ولكن الفكرة كانت قد استبدت بعقلى ، ولم تكن بنت لحظتها . لابد أنها نبتت فى ذلك اليوم الذى كنا فيه منفردين كالعادة فى منزلهم ، وكنت أحدق فى صورة العذراء مريم وهى تحتضن ابنها المسيح بحنان زائد . كانت ألوان الصورة قديمة وباهتة ، ومن رأس مريم كانت تخرج إشعاعات تذهب فى كل اتجاه ، وكان عيسى طفلا جميلا جدا يبتسم بسعادة الابن المدرك أنه فى أحضان أمه ، وفى كنف رعايتها وحنانها ، وكانت مريم أيضا تبتسم ، شبح ابتسامة يعبر وجهها وشفتيها ، وكأنها تدرك أن صورة ما ستؤخذ لها ، وتريد أن تضمن الصورة ابتسامة أم سعيدة بابنها حقا .

وحين التفت أحادث حنونة أحسست على الفور أنى أريد أن أرتد طفلا ، أرتكن إلى حضن حنونة وتسعد بى مثل سعادة العدرة مريم بمسيحها ، ولكنى ، فى ذلك اليوم ، وأنا أطلب منها أن تكون عذرائى وأن أكون مسيحها ، لم أكن أفعل ذلك وفى ذهنى أن أتحول إلى طفل صغير تحتضنه أمه . هناك ، وراء سؤالى وطلبى كانت ترقد

رغبة قوية قديمة عارمة ، أن أحتضن أنا حنونة . آخذها بين ذراعى ، وأطبق عليها ، ليس بعنف وقوة ، فأنا أعرف أنها رقيقة هشة ، إنما بحنان ورفق ورقة أريد أن أطبق عليها ، أريد يدى إذا أطبقت وحضنى إذا احتواها أن أحتويها تماما ، وأصغرها وأدخلها بطريقة ما فى صدرى فتلك هى الوسيلة الوحيدة فى رأيى لإسكات هذا الإحساس المستمر برغبتى فى الاقتراب منها والالتصاق الدائم بها .

كنت أريد أن أقترب منها الاقتراب الأكبر ، اقترابا أكبر بكثير مما كنا نفعله مع البنات ونحن نلعب لعبة الزواج فى المخازن القديمة .

حدقت فى حنونة طويلا . كانت تلك أول مرة أراها تحدق على هذا النحو الغريب . كثيرا ما كنت أسأل نفسى عن رأيها فى أو إحساسها نحوى ، ففى معاملتها لى لم أكن أحس بذلك الشىء الخاص الذى تنفرد به العلاقات الخاصة ، كنت أحس بنفسى وكأنى فى نظرها لست سوى صبى فى الرابعة عشرة ، مجرد صبى آخر فى عينها ذات الستة عشر ربيعا ، حقيقة تربطها به علاقة ورفاقة وتآلف واتفاق ، ولكن لا شىء أكثر من هذا. فى تحديقها هذه المرة أحسست ، فجأة ، باللمعة فى عينيها تأخذ ذلك الطابع الذى طالما هفوت إليه ، طابع الإحساس بالخصوصية ، أحسست أنها نظرة

موجهة لى أنا ، وأنها تقول بها كلاما كثيرا تخجل أن تقوله العين نفسها ، ولا تفصح عنه سوى النظرة ، بل هو كلام لا يمكن — أو كان لا يمكن فى نظرى — أن تقوله عين ، وبالذات عينها ، كلام لم أملك معه إلا أن أقترب منها . كثيرا ما كان أحدنا يلتصق بالآخر ونحن سائران ويتأبط ذراعه . ولكن تلك أول مرة نقترب فيها إلى هذه الدرجة . ولم أكن ، كائنة ما دارت أحلامى وأمنياتى ، أتصور أن يحدث ما حدث ، وأن ، فجأة ، تضمنى حنونة إلى صدرها ، بقوة مرتعشة مستعجلة مفاجئة ، وتطبع على جبينى قبلة سريعة ، لابد احمر لها وجهى كثيرا . ورفعت رأسى وأصبح وجهى يقابل وجهها . كنا اثنينا ، نلهث ، وجاءت المفاجأة الرائعة الثانية فقد وجدتها تنحنى ، وأنا الأقصر قليلا ، وتقبلنى فى شفتى ، قبلة سريعة أيضا ، عظيمة الاضطراب والارتجاف حتى لقد أحسست بموجات الارتعاش التى تجعل شفتيها تنطبع على شفتى ، قبلة سريعة كأنها البرق ، ولكنها البرق ، ولكنها شملتنى بكهرباء نعناعية المذاق تفتحت لها كل مسام روحى وانتعش قلبى وكأنه طائر ربيع بكر فى اليقظة ، قبلة خلفتنى إلى أعظم اضطراب شعرت به فى حياتى إلى تلك اللحظة، فوكأننى فجأة قد أدركت، بالقبلة أن حنونة بنت. فيها من ذلك الشىء

الذى يميز جنس النساء . والذى يجعلهن يرتدين تلك الألوان والأثواب ويتضمخن بالعطور . ويصلصلن بالغوايش والخواتم والعقود ، فيها من ذلك الذى يبرز الصدور ويجعل الجلد فى نعومة الحرير وللصوت ذلك النغم الرقيق فى مقابل صوت الرجل الخشن كجسده الشوكى كذقنه ، الداكن كوجهه وشعر صدره ، حنونة إذن أنثى . اضطرابى كان سببه أنى أبدا لم أتصور هذا قبلا أو أحلم به . حنونة فى نظرى كانت كالعذرة كالإلهة ، كالمشيئة العظمى فى كل خلجة سعادة يحفل بها الكون . بجزء من جزء من الثانية عاودنى الشعور وأنا لا أزال أستجيب لاحتضانها بيدى تلتف حولها وتضمها ، أحس أنى أضم عذرية الكون الأزلية ، عاودنى الشعور ولم يزايلنى . سقط فى قاع عقلى ولم يبرحه وظل كالأمانى العميقة حبيسة تقديس العرف والمعقول والتقاليد أمنية أن تذوب الذات الصغرى فى الذات الأعظم ، أن تحب الله إلى الفناء ، أن يتم الاتصال الخالد بينك وبين السر الكونى الأعظم .

وحتى لو كنت قد نجحت فى تصور حنونة أنثى وفى إنزالها من الملكوت إلى الأرض جسما من لحم وعظم فقد كان من المحال أن أقرن هذا التصور بنفسى ، من المحال أن أتصور علاقة لى تقوم مع حنونة

الأنثى حتى لا أفعل معها مثلما أفعل مع سائر البنات ، حاولت كالمجنون أعيد القداسة إلى مكانها ، أستعيد إحساسى أنها الأعظم ، وأن ما تشعه فى الكون من جمال ورشاقة وتفوق يجعلها فوق مستوى البشر ، يرفعها للسماء . حاولت جاهدا أن أعيد الشعور ليحول بين الشاب الصغير الذى انتفض داخلى فجأة مستجيبا لنداء الأنثى الذى تولدت عنه حنونة فجأة أيضا ، ولكنى كنت أحاول المستحيل ، فكل قداسات الدنيا من المحال أن تباعد بين القوتين الأعظم للحياة إذا وجدتا ، الرجل والمرأة ، إذ ثالثهما هو القانون الشيطانى الذى لا يمكن عصيانه . وقبلتها أنا ، مرتجفا ، مضطربا مثلها ، إنما قد استجمعت ما فى من رجولة بكر ، ولتكن حتى ما تكون ، أرضية تكون أو سماوية ، قديسة أو فتاة عادية فأنا محبوب وأنا محب والبادى كانت هى وعلى أنا أن أنعم مستحما عريان فى ذلك البحر المفاجىء الغريب الذى تفتح لى فجأة من بين شفتيها . يا لقلبها يدق وقد رقدت على الكنبة وأذنى فوق قلبها ، دقا كونيا يكاد يزلزل الأرض والسماء فقد كان يزلزلنى . يا لوجهها أجد فيه الأرض مرة وكل ما فيها من جمال ، والسماء مرة وكل ما فيها من قداسة ، علوية ترابية ، تحمر وتصفر تكتئب وتكسوها ابتسامة العذراء ، تموج كسطح البحر

الرهيب الذى تفجر ، دون أن تنطق ، دون كلمة يتلوى جسدها ويتكلم ، عذراء كانت وعذرى كنت ، وكلانا لا يعرف ، ويريد أن يعرف وهو يحاول أن يعرف ، والغمامات التى كانت تحجب عيوننا عن أن ترى ، وأن ترى أول ما ترى أنفسنا ، تنزاح والحمى ليست حمى الغيبوبة ولكنها حمى التعرف المجنون والاستحواذ والمتعة والاكتشاف ، حمى السر الكونى إذا ، أخيرا انكشف ، حماك وأنت واقف ترقب ليلة القدر إذا انفتح باب السماء أمامك حقا واكتشفت من خلاله سر السماء ، أو إذا انشقت أمامك المرأة فجأة عن مكنونها الأعظم لك ، ولك وحدك .

كلما تذكرت أنى كنت لو حاولت تخيلها بنتا وأنثى أحس أنى على وشك القيام بمعصية تزلزل الأرض والسماء كما لو كنت على وشك ارتكاب الإثم الأعظم ، أعظم إثم يرتكبه بشر ، كنت كلما تصورت هذا وأحسست بحرمانى السابق يطغى أضمها وأعتصرها وألوكها ، حية دافئة ، أمرغ نفسى فيها وفى حرمانى منها وفى قداستها وفى الإثم الأعظم وبشريتها ، والزمن الطويل الذى انقضى أعبدها ، كنت أعبدها ، وهأنذا أنا العابد أنالها وعلى نحو محال أن تتطرق إليه أشد الأحلام تحريفا وبعدا عن التصديق .

وماذا أقول : أأقول إن القداسة التى كانت تحيط بها وتصبغ صوتها وحتى إشارات يدها كانت إشعاعات الأنثى فيها ، إشعاعات المرأة مقدسة ومشرقة ، إشعاعات النوع والأنوثة كلها مركزة كضوء العدسة فى حنونة ، حنانها ، مسبحيتها ، جمالها ، نظراتها ، عبادتى لها ، كلها أنوثة وأنثى ، ولقد مرت سنون وسنون ، وعرفت نساء ونساء ، ولكنى ، لأنها كانت هى الأنثى فى ذلك اليوم لم أشعر ، منذ يومها ، أنى الرجل ، إلى الآن .

وكأنما الماء فى الهدار بهدوء شديد بطؤت حركته ، وضحلت حفرته ، وآب إلى سكون .

وكأنما البحر الذى انبثق من بين شفتيها بطول الدنيا وعرضها ، آب سطحه إلى زجاج .

وبالكاد حاولنا الاعتدال ، وهى خجلى ولكنها ليست نادمة ، وأنا خجلان ، حين لمع شعاع عند الباب على حين بغتة ، شعاع أدركت فى الحال كنهه وأنه صادر عن زجاج نظارة معوض أفندى أو الباش أسطى أبيها ، الطويل الرفيع ذى العينين المتعبتين دائما ، والتى لابد تجد عند كل زاوية منهما ، وفى أى ساعة من ساعات اليوم ، نقطة بيضاء من العماص أو الالتهاب لا أعرف .

كنت خجلان ولكنى كنت كالمؤمن الذى للمرة الأولى فى حياة إيمانه يتصل الاتصال اليقينى المادى بخالقه ، وتتم المعجزة ، ويتحول عنده الإيمان إلى رسالة ويقين مستعد أن يفقد حياته نفسها وبكل بساطة فى سبيلها ، وهكذا حين انسحبت حنونة من الحجرة هاربة كالقطة ، ودق قلبى الصبى دقة قلب الصبى يضبط ، أوقفت دقه بعناد المؤمن المهووس الممتلئ إيمانا ، ليس بما فعله منذ لحظات بالذات ، وإنما بحنونة ، وكل ما يتصل بحنونة ، وعلى رأسه أن تستمر علاقته بها ، قامت الدنيا أو قعدت ، ضربه معوض أفندى أو تشاجر مع أبيه ، ردحت أمها لأمى أو خنقتنى الأم ، سحب أبى بندقيته القديمة من دولابها وأطلق النار على عائلة معوض كلها أو على أنا منفردا ، فليحدث ، وإنما كما يصلى العابد لإلهه ، كما يتصل الشعاع بأمه الشمس ، كما لا يمكن أن تخلو النجوم من الليل فصلتى بحنونة أكبر من كل هذه الحتميات ، باقية وستبقى ، إلى أن أموت أو نموت معا ، وربما حتى بعد الموت تبقى .

ولكن يبدو أنى رغم هذا الإحساس الداخلى المروع ، كان وجهى من الخارج ، وأمام مشهد معوض أفندى المنتصب طويلا ورفيعا ، ينخطف ، وينسحب كل ما فى جسدى من دم ويسيل مغرقا أرض

الحجرة . بقيت واقفا جامد العينين مخفضهما أنتظر العقاب . كنت رغم هذا أدرك أنه جاء بعد النهاية ، وأنه لا يمكن أن يخمن حقيقة ما حدث ، ولكنى بإصرار كنت أنتظر العقاب . وليته عاقبنى ، ليته ضربنى أو سبنى ، ليته حتى اشتكى لأبى وليت أبى قتلنى ، فكل ما فعله أنه بعد سكوت طويل قال :

ـــ أنا كنت فاكرك جدع يا محمد .

كلمة من الكلمات التى تلصق بالذهن مدى العمر لا تمحى . كثيرا ما ترد إلى أذنيك ، وتجدها فجأة قد انبثقت من غياهب الماضى واستحضرت نفسها ، حتى على شفتيك تنطق نفسها فترددها ، وتشملك رعدة خجل من نفسك وكأنما الرعدة الأولى التى أصابتك حين سمعتها أول مرة ، وكلما تذكرتها ، تذكرتها كاملة . نفس النغمة والطريقة التى قيلت بها ، ولا أدرى بالضبط إن كانت قد مرت شهور أو أعوام على ما حدث إذ كل ما تلا ذلك كانت أياما مملة كئيبة ممتدة الطول لا نهاية لها وبلا هدف . آلاف المرات ألف حول البيت على أمحها . كنت أعرف أن القضاء قد حل وأن الأمر البات الصريح قد صدر لها من أمها وأبيها معا ، أن لا ترانى ، أن أموت تماما من وجودى . وكنت فى مرات ، مرات قليلة جدا ، مرة كل ألف مرة ،

أراها ، أراها من بعيد وأتطلع إليها مكتفيا بنظرة البعد وكأنني الإنسي يتطلع إلى نجوم السماء ، ويحز الهوى القدسي في نفسي أحيانا حتى ليدفعني دفعا أن أقترب ، وأظل أقترب حتى لأصبح على مرمى البصر منها ، وأناديها ، بهمس خفي مرة ، بصوت عال مرة ، وأشير لها ، بيد ترتعش ، بيد أحيانا مهووسة مبتورة ، بذراع تقفز مع الجسد في الهواء وكأنما تريد أن تمسك بخط البصر الكامن بين عينيها المستقيمتين وبين الأفق . ولكنها لم يحدث أبدا أن رمش لها جفن الإدراك ، إدراك وجودي ، واقفة أبدا في قلب مربع النافذة الأصفر الذى تقطع صفرته عمدان الحديد ، عارفة بوجودي ، هكذا أحس وأكاد أقسم ولكنى أعرف أنها لا تدركه أو تأبى إدراكه ، لا بد أنها قطعت على نفسها عهدا أمام أبويها ، وعهود حنونة ، كحنونة ، مقدسة ، ومحال أن تحنث بالعهد المقدس . أذوب وجدا وأنا أتذكر ، أتذكرها من لحظة عرفتها إلى لحظة المعرفة الأعظم ، أتذكر كل حركة صدرت عنها، كل كلمة عرفتها، كل كلمة، كل نظرة ذات معنى ارتسمت ذات مرة على ملامحها ، أتذكرها وأذوب وجدا وشوقا وأقتل نفسي ندما . أكان لابد أن أصل إلى المستوى الأعظم . ألم يكن القرب بمجرد القرب ، أهون ألف مرة من التلاشي التام إلى حد

القطيعة . كنت كالبطل فى قصة ألف ليلة وليلة الذى تركوه فى القصر ذى الأبواب السبعة وأمروه ألا يفتح الباب السابع للحجرة السابعة ، وعاش فى القصر ينعم ويستمتع ، ولكنه لم يستطع أن يقاوم المتعة الأكبر ، أن يفتح الباب السابع ، وفتحه ، ورأى ما لم تره عين و لم يخطر على قلب بشر ولكنه فى النهاية وجد نفسه هناك خارج القصر فى النقطة السحرية التى فتح له باب القصر منها ، كأنما عاديًا قد عاد إلى الدنيا العادية ، ووجد هناك ستة يرتدون السواد ويجلسون فى بكاء متصل ، إنهم أولئك الذين سبقوه إلى الندم ، وانضم مالك الحزين بملابسه السود ليصبح سابعهم ، أكان لابد من الباب السابع والمتعة الأعظم ؟ كمالك الحزين أبكى ، وبالندم أحيد ، والعالم كئيب ، والأيام من فرط طولها عجوز رمادية شائخة ، والليالى بلا منتصف أو فجر أو صباح ، والعمر بلا زمن ، إلى أن جاء الخريف ، وسرت الإشاعة ، ولا أصدق أنا ، وتحدد اليوم ، والشخص ، وحلت الليلة ، وانتثرت الكوبات فى المستعمرة ، وتركزت فى المربع الأوسط الواسع ، الأضواء تكسر الظلام باهرة ، والشموع كثيرة لا حصر لها ، حتى رائحة الشموع نفسها كانت على البعد تشم ، وابن عمها جاء من الصعيد ليتزوجها ، وهم يزفونها إليه ، ونفس القسيس

الذى يزورهم بين الحين والحين قد حضر من كنيسة البندر ، والكل يغنى ويردد وراء القسيس : كير .. يا .. ليسون .. ارحم يارب .. يارب ارحم .. وحنونة فى ثيابها البيضاء الناصعة ، وعقد الفل . والطرحة ، وقد حملوا وجهها بأكثر مما يحتمل من ألوان وأصباغ ولكن بقيت لها نظرة العينين غير مصبوغة ، وإنما هى زائغة مروعة تائهة ، تتحرك مدفوعة بالأيدى الكثيرة التى تتجاذبها ، تتحرك كالمنومة مغناطيسيا كمن تؤدى دورا ، وثمة ابتسامة شاحبة خائفة لا تغادر وجهها ، وإلى جوارها أفندى ربما لم تره فى حياتها إلا الليلة ، ضخم الجثة ، أسود الشارب كثيفه ، يرتدى (بالطو) أسود وشعره لامع شديد اللمعة بما فيه من بريانتين ، العريس منتفخ الأوداج وكأنه لتوه قد ربح صفقة ، يمضغ ويتملظ ويضحك من أعماق صدره وأحيانا دون أن يريد ، وحنونة إلى جواره كالحمامة المسوقة الوديعة تتجاذبها الأيدى وتدفعها ، وتبتسم فى شحوب وعيناها هائمتان تبحثان عن شىء بين نجوم السماء وكأنها العذرة فقد منها مسيحها ، والعذراء راضخة ، صابرة ، وحيدة ، تفتش السماء بعينيها بحثا عن الخلاص ، من يدرى ربما كانت تفتش عنى وأنا قابع فوق السطح أتألم وأندم وأرقب ، والكل يردد: كير ياليسون.. كير ياليسون .